

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

عندما خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية لفتح بلاد الشام تحتم عليهم إيجاد وسيلة للتواصل مع الآخر غير المسلم آنذاك. ولما كانت بلاد الشام بصفة خاصة تعج بعرقيات مختلفة - فقد كان بها سريان وعرب وأرمن وروم وغيرهم، كما تباينت المذاهب الدينية المسيحية بها أيضاً - فإن الرابط المشترك بين أبنائها لم يكن المسيحية فقط مع تعدد مذاهبها آنذاك، أو اللغات المحلية المتباينة، بل كانت اللغة الرومية (اليونانية البيزنطية) التي كانت تعتبر لغة الإدارة والفكر والكنيسة أيضاً، فقد كان لها الهيمنة على سكان الشام، بحكم أن البيزنطيين (الروم) فرضوا هذه اللغة على الدواوين والإدارة والكنائس والأديرة الأرثوذكسية التي كانت تتبع كنيسة القسطنطينية.

ويكفي للتدليل على سطوة هذه اللغة آنذاك أن معظم التراث الكنسي الشرقي الذي وصلنا دوناً بها، بل إن مجموعة كبيرة من الكتابات الكنسية الشرقية، مثل مجموعة أعمال الآباء اليونانيين *Patrologia Graeca*، ومجموعة سير القديسين اليونانيين *BHG*، بالإضافة إلى جزء كبير من مجموعة أعمال الآباء الشرقيين *Patrologia Orientalis* وصلنا باللغة اليونانية البيزنطية (الرومية).

وعندما استقر المسلمون ببلاد الشام لم يجدوا بُدّاً من الإبقاء على اللغة الرومية كلغة للإدارة والدواوين، وظل العاملون بها ممن يجيدون هذه اللغة من أبناء الشام حتى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م). كما استخدم العرب المسلمون، الذين كانوا يجهلون التعامل بتلك اللغة آنذاك، الترجمة والعمال من الشوام، الذين كانت غالبيتهم آنذاك من المسيحيين، للتعامل مع سكان البلاد ومع البيزنطيين أيضاً؛ مثلما استخدموا كُتبة وعُمالاً من الأقباط للتواصل مع عموم المصريين في الكور المختلفة من أرض مصر.^(١) وتشير كثير من النصوص العربية التاريخية إلى هذا الأمر، لاسيما وقت المعارك بين المسلمين والبيزنطيين. غير أن استقرار العرب المسلمين في بلاد الشام جعلهم في خط المواجهة مع البيزنطيين مباشرة لاسيما في مناطق التماس الحدودية في قيليقيا، وفي مناطق الثغور الشامية والجزرية، والتي كانت معبراً حضارياً بين الطرفين في غير أوقات الحرب.^(٢)

وهنا لا بد أن يتساءل المرء: ما اللغة التي كان العرب المسلمون يتعاملون بها مع البيزنطيين على الصعيدين الرسمي والشعبي؟ وما اللغة المشتركة التي كان الحدوديون من الجانبين يتعاملون بها مع بعضهم البعض؟

ومع طول فترة الجوار بين القوتين العظميين آنذاك - بيزنطة والمسلمين - والتي استمرت ما يقرب من ثمانية قرون، يبرز سؤال: هل عرف كل منهما لغة الآخر؟ ومن منهما كان الأحرص على التعامل بها؟ وإلى أي مدى

(١) تجدر الإشارة إلى أن مراسلات الولاة العرب على مصر إلى عمالهم من الأقباط على الكور المختلفة كانت ترسل إما باللغة اليونانية (الرومية) أو اللغة القبطية، بعد أن تعد سلفاً في ديوان الوالي بالقسطنطينية على أيدي الكتاب الأقباط العاملين به. وقد قام الأستاذ أندريس بل بتجميع جزء كبير منها ونشرها - دون ترجمة للغة حديثة - في المجلدين الثالث والرابع من مجموعة البرديات المحفوظة في المتحف البريطاني. أما بقية البرديات المنتشرة هنا وهناك فقد نشرها علماء آخرون فيما بعد فرادى. عنها انظر:

Greek Papyri in the British Museum, ed. H. I. Bell, III-IV (London 1910). Cf. also Papyrus grecs d'Apollónos Anò, ed. R. Rémondon, (Le Caire 1953); Papyri russischer und georgischer Sammlungen, IV (Tiflis 1927): Y. Raghieb, "Lettres nouvelles de Qurra b. Šharik", Journal of Near Eastern Studies 40(1981), pp. 173-187; Tarek M. Muhammad, "The Role of the Copts in the Islamic Navigation in the 7th and 8th Centuries: the Papyrologica Evidence," Journal of Coptic Studies 10. (2008), pp. 1-32.

(2) Tarek M. Muhammad, "The Conversion from Islam to Christianity as Viewed by the Author of *Digenes Akrites*," *Collectanea Christiana Orientalia* 7. (2010), p. 122.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

استفاد العرب المسلمون من تجربة رسول الله ﷺ عندما أمر زيداً بن ثابت بتعلم اللغة السريانية؛ لأنه كان لا يأمن مكر اليهود آنذاك، حتى أصبح زيداً مترجماً لهذه اللغة^(١)؟

إن الإجابة على كل هذه الأسئلة تمثل محاور الدراسة الأساسية. ولا بد في هذا المقام أن نؤكد على أن هذه الدراسة ليست معنية البتة برصد حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية - التي أستهلكت بحثاً - ولا بدراسة أوضاع وماهية المترجمين الذين كانوا يحترفون الترجمة في بلاد الشام، الذين كان أغلبهم من أبناء الأسر الشامية المسيحية التي توارثت مهنة الترجمة، والذين نعموا برغد العيش في ظل الخلفاء المسلمين، سواء في دمشق أم بغداد، بل دراسة مدى معرفة العرب المسلمين بتلك اللغة على المستويين الرسمي والشعبي، كما سبقت الإشارة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العرب المسلمين استخدموا مصطلح الرومية - حسبما ورد في المصادر العربية - للإشارة إلى اللغة اليونانية البيزنطية، نسبة إلى مصطلح "الروم" الوارد في القرآن الكريم^(٢) وتختلف اللغة اليونانية البيزنطية (الرومية) عن اليونانية الكلاسيكية - التي أنتجت أروع أشكال الأدب اليوناني في العصر الكلاسيكي ق.م. - من حيث القواعد النحوية والتركيبات اللغوية وما أضيف إليها من مفردات لغوية خاصة بالعهد القديم والجديد.

وستستخدم في هذا البحث مصطلح "العرب المسلمين" تمييزاً لهم عن كل من "العرب المسيحيين" وعن العجم أو الترك المسلمين، الذين عجت بهم دار الإسلام. كما سنقتصر على فترة العصر البيزنطي الأوسط لأنه يمثل قمة التلاقى العسكري والحضاري بين العرب المسلمين والبيزنطيين؛ ومن ناحية أخرى لأن طبيعة الموضوع الحضارية لا تساعدنا مادته العلمية على استخلاصه خلال عصر محدد من عصور الخلفاء أو الأباطرة؛ حيث من المعروف أن التحولات في النظم والمؤسسات حضارياً تستغرق بعض الوقت مقارنة بالتحولات السياسية؛ بالإضافة إلى أن المؤرخين آنذاك أولوا عنايتهم الأولى لتدوين التاريخ السياسي والديني.

الرومية وسيلة اتصال بين المسلمين والبيزنطيين:

تشير النصوص التاريخية إلى أن أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد كانا يتعاملان مع أهالي الشام عن طريق الترجمة^(٣) الشوام الذين كانوا ينقلون تعليماتهما إلى السكان بالرومية، كما كانوا ينقلون عنهم من الرومية إلى العربية^(٤). فعندما كان خالد بن الوليد مُحاصراً لدمشق فإذا برجل شامي اسمه يونس الدمشقي كان قد تزوج لتوه غير أنه لم يدخل بزوجه نظراً للحصار الإسلامي لدمشق، فلما أتى خالداً وعرف قصته أعتنق يونس الإسلام، وأصبح يونس يترجم لخالد بن الوليد أثناء حصاره دمشق، بينما أصرت زوجته على مسيحتها. وعندما اشتد الخلاف بين يونس وزوجه بسبب رفضها الإسلام أخرجت سكيناً وطعنت نفسها. فجاءه رافع بن عميرة الطائي وقال له إن

(١) سنن الترمذي، حديث رقم ٢٦٣٩، باب ما جاء في تعلم السريانية؛ مسند أحمد، حديث رقم ٢٠٦٠٥.

(٢) سورة الروم، آية ١.

(٣) الترجمة أو المترجمون هم من يقومون بالنقل من لغة إلى لغة أخرى، ويسمون أحياناً بالنقلة، سواء كان نقلاً شفاهياً أو كتابياً. حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية، ج ٣، (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٩٩٠.

(٤) الواقدي، فتوح الشام (بيروت د. ت.)، ج ١، ص ٣٣، ٨٢، ١١٢.

فى سباياها من هى أجمل منها فليتخذها زوجة له. وعندما جاء يونس ورأى الأسيرة تخاطبا بالرومية (أى اليونانية) ليعرف منها أنها ابنه هرقل، وزوجة القائد البيزنطى توما.^(١)

وبعد حصار المسلمين لمدينة بعلبك قال عامر بن وهب اليشكرى: "شَهِدْتُ حَرْبَ بَعْلَبَكِ وَقَدْ زَحَفَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى سَوْرها ... وَنَشَابَ الرُّومُ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، وَكَانَ أَناسٌ مِنَ الْعَرَبِ بِلا سِلاحٍ فَأَصابَهُمُ سِهامُ الْقَوْمِ. قال: ورأيت القوم يتساقطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذهبت إلى رجل سقط لأضرب عنقه فصاح 'الغوث الغوث'، وكنا قد عرفنا من الحرب أن من قال الغوث يعنى الأمان. فقلت له: يا ويلك! لك الأمان فما الذى ألقاك إلينا من سوركم؟ فجعل يكلمني بالرومية وأنا لا أدري ما يقول. قال عامر بن وهب اليشكرى: فسحبته إلى خيمة أبى عبيدة وقلت له أيها الأمير اطلب من يعرف لغة هذا العليج فإنى رأيتهم يرمى بعضهم بعضاً. فقال أبو عبيدة لمن حضر من المترجمة: أخبرنا بخبر هذا العليج وما قضيته ولم يرمى بعضهم بعضاً. فقال له الترجمان: يا ويلك قد أعطيناك الأمان فأصدقنا فى الكلام قل لنا لم يرمى بعضكم بعضاً؟ قال إن بعضنا لا يرمى بعضاً ولكننا من أهل القرى فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن أهل قنسرين التجأنا إلى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنتحصن فيها لما نعلم من كثرة ما بها من الجيش فضيق بعضنا على بعض، وسددنا طرقات المدينة، ومضى بعضنا إلى السور، فإذا ليس لنا موضع نأوي إليه، ولا مسكن نسكن فيه، فجعلنا الأبراج والأسوار مسكناً لنا؛ فلما زحفت إلى القتال برز إليكم أهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدسوننا بأرجلهم، وإذا اشتدت الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منا فيلقيه إليكم..."^(٢) وعندما دارت رحى القتال بين البيزنطيين والمسلمين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وجد المسلمون أن "أهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم ويصيحون بلغتهم. فقال الأمير أبو عبيدة لبعض المترجمة: ما يقول هؤلاء؟ فقال له الترجمان: أيها الأمير إنهم يقولون 'يا ويلهم ويا عظم ما أصابهم ويا خراب ديارهم ويا فناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم'..."^(٣)

وعندما توجه العرب المسلمون لفتح بيت المقدس استخدموا الترجمة ممن يجيدون الرومية للتخاطب مع أهالي بيت المقدس ومع البطريك صفرونيوس *Sophronius* (٦٣٤-٦٣٨م)،^(٤) كما استعملوهم أيضاً أمام حلب.^(٥) وعندما كان عمرو بن العاص يفتح قيصرية فلسطين أرسل إليه القائد البيزنطى الذى تسميه المصادر العربية "فلسطين بن هرقل" أسقف قيصرية ليحادثهم بالعربية ويطلب منهم مندوباً عن المسلمين المرابطين هناك ليقابل القائد البيزنطى. وكان هذا القس هو الذى يتولى الترجمة من العربية إلى الرومية والعكس.^(٦) وهكذا، تكشف هذه الروايات

(١) الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٨٤-٨٨.

(٢) الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ١٣٤.

(٣) الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ١٣٩-١٤٣، ١٥٤، ١٨٦، ١٩٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، تحقيق عبد الله القاضى (بيروت ١٤١٥هـ)، ج ٢، ص ٣٤٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت د.ت.)، ج ٧، ص ٥٥؛ الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٢٣١-٢٣٥.

(٥) الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٦) الواقدي، فتوح الشام، ج ٢، ص ١٩-٢١.

الروايات بجلاء أن العرب المسلمين في هذه المرحلة من تاريخ فتوحاتهم لبلاد الشام لم يكونوا يعرفون الرومية، ولهذا كانوا يستعينون بالترجمة من أهل الذمة الشوام.

وفي عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠ هـ / ٦٦١-٦٨٠ م) نجده يقرب إليه المترجم يعقوب الرهاوي السرياني، الذي ترجم بعض كتب الإلهيات اليونانية كما ترجم كتب الفلسفة والنجوم والكيمياء والطب والحروب والآلات والصناعات من اللغة اليونانية وغيرها من اللغات القديمة إلى العربية، بناءً على توجيهات معاوية بن أبي سفيان.^(١)

أما خالد بن يزيد بن معاوية، الذي قال عنه المؤرخون أنه كان "من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، كان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته وأخذ الكيمياء عن مريانس الراهب الرومي، وله فيها ثلاث رسائل،^(٢) تضمنت إحداها ما جرى له مع مريانس وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها،"^(٣) فقد دعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية ممن يعرفون العربية وطلب إليهم أن يترجموا له كتب جالينوس في الطب، كما كلف مريانس ومترجماً آخر يدعى اسطفانوس بترجمة كتب الأقدمين من اليونانية والقبطية إلى العربية؛^(٤) ويعلق ابن النديم قائلاً إن هذا كان أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.^(٥) وبناءً على هذا، من المحتمل أن معاوية استعمله في الترجمة الشفهية أيضاً.

وقد سبقت الإشارة إلى أنه حتى عصر عبد الملك بن مروان كانت لغة الإدارة والدواوين هي اليونانية، إلى أن قام عبد الملك بحركة تعريب الدواوين في عام ٨١ هـ / ٧٠٠ م، وكانت - حسب رواية البلاذري - بسبب أن أحد كتابه الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماءً فيبالي في الدواة، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقُص السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك، فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عنده كئيباً فلقبه قوم من كتاب الروم فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة، فقد قطعها الله عنكم."^(٦) وهكذا، حلت العربية مكان اليونانية في الإدارة والدواوين،

(١) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية (دمشق ١٩٦٨)، ج ١، ص ١٠٢.

(٢) من هذه الرسائل "السر البديع في فك الرمز المنيع" و "كتاب الفردوس". [انظر: ياقوت الحموي، معجم الأديباء (بيروت ١٤١١ هـ)، ج ٣، ص ٢٨٤].

(٣) الصفي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى (بيروت ٢٠٠٠)، ج ١٣، ص ١٦٤. انظر أيضاً: اليافعي، مرآة الجنان (القاهرة ١٤١٣ هـ)، ج ١، ص ١٧٦؛ الحنبلي، شذرات الذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط (دمشق ١٤٠٦ هـ)، ج ١، ص ٩٦.

(٤) محمد عبد القادر خريسات، "خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية"، مجلة دراسات تاريخية، عدد ١٣-١٤ (دمشق ١٩٨٣)، ص ٢٣؛ علي حسنى الخربوطلي، الحضارة العربية (القاهرة ١٩٧٥)، ص ٢٨٦.

(٥) ابن النديم، الفهرست (بيروت ١٩٧٨)، ص ٣٣٨.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان (بيروت ١٤٠٣ هـ)، ص ١٩٧؛ ترتون، أ. س.، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: ترجمة: حسن حبشي (القاهرة ١٩٩٤)، ص ١٤. لسنا هنا بصدد مناقشة أسباب تعريب عبد الملك بن مروان للدواوين والسكة حتى نقارن هذه الرواية بغيرها، بل الهدف من عرضها هو بيان ردة فعل الترجمة لقرار الخليفة الأموي. ومع هذا فإن العلاقات السياسية مع الدولة البيزنطية زمن الإمبراطور جستنيان الثاني كانت من الأسباب القوية للقرار الذي اتخذه عبد الملك بن مروان بشأن تعريب

وكذلك كان الأمر بالنسبة للعملة العربية الجديدة.^(١) وتشير هذه الرواية المهمة إلى أن الترجمة الشوام كانوا يتخذون من أعمال الترجمة أو النقل حرفة لهم، لعلمهم أن العرب آنذاك لم يكونوا على دراية كافية بهذه اللغة.

وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ / ٧١٧-٧٢٠ م) جاءه البريد من مصر بأن قارباً وصل إليها يحمل عشرة من الروم عليهم رجلٌ منهم يريدون مقابلة أمير المؤمنين. فكتب إليه "أن وجههم إليّ، ووجه معهم عشرة من المسلمين عليهم رجلٌ منهم يحسن الكلام بالرومية، ولا يُعلمونهم بذلك حتى يحملوا إليّ كلامهم. فساروا حتى نزلوا دمشق خارج باب البريد فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم الوالي في دخول المسجد فأذن لهم، فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبة فكان أول ما استقبلوا المقام ثم رفعوا رؤوسهم إلى القبة فخر رئيسهم مغشياً عليه، فحمل إلى منزله فقام ما شاء الله أن يقيم ثم أفاق فقالوا له بالرومية ما قصتك... ثم يبدأ في سرد أسباب غشيانه.^(٢) وهكذا، تشير هذه الرواية إلى أن من أصحاب عمر بن عبد العزيز من كان يعرف الرومية، بل دليل أنه طلب منهم ألا يبينوا ذلك للروم، حتى يكشفوا نياتهم.

ويشير المسعودي إلى اصطحاب الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٨ م) لترجمان يسمى شبلاً، كان يترجم له عن الرومية، حيث يحكى شبل أنه ذات يوم كان مع هارون الرشيد حين نزل هرقل^(٣) وفتحها، فرأى نقشاً منصوباً مكتوباً باليونانية - وهو يستخدم لفظة اليونانية لا الرومية - فأخذ يترجمه للرشيد، والأخير ينظر إلى مترجمه، فكانت ترجمة النقش تقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن آدم غافص [هكذا] الفرصة عند إمكانها، وكل الأمور إلى وليها، ولا يحملنك إفراط السرور على المأثم، ولا تحمل على نفسك هم يوم لم يأت، فإنه إن يك من أجلك وبقية عمرك يأت الله فيه برزقك، ولا تكن من المغرورين بجمع المال، فكم قد رأينا جامعاً لبعل حليلته، ومقتراً على نفسه، موفراً لخزانة غيره" وقد كان تاريخ هذا الكتاب في ذلك اليوم زائداً على ألفي سنة.^(٤) وهنا تتبغى الإشارة إلى أن البسمة الموجودة في النص هي من وضع المترجم، لأن عمر النقش كما ذكر أكثر من ألفي سنة، أي قبل ظهور الإسلام والمسيحية بقرون طويلة.

وعندما كان الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ / ٨٣٣-٨٤١ م) محاصراً لمدينة عمورية^(٥) أقبل الناس بالأسرى والسبي عليه من كل وجه حتى امتلأ المعسكر فأمر المعتصم بسيل الترجمان أن يميز الأسرى فيعزل منهم

الدواوين والسكة وصبغ دولته بالصبغة العربية. انظر: حسنين محمد ربيع، تاريخ الدولة البيزنطية، (القاهرة ١٩٨٣)، ص ٩٤-٩٥؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وعلاقتهم بالعرب (بيروت ١٩٥٥)، ج ١، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(١) J. L. Boojamra, "Christianity in Greater Syria: Surrender and Survival," Byzantion 67 (1997), p. 159.

(٢) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة الله (بيروت ١٩٩٥)، ج ٢، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) هرقل بالكسر ثم الفتح مدينة ببلاد الروم سميت بهرقل بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد ورمى بالنار والنفط حتى غلب أهلها. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت د.ت.)، ج ٥، ص ٣٩٩.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي (بيروت ١٩٨٩)، ج ١، ص ٣١٠.

(٥) عمورية بفتح أوله وتشديد ثانيه بلد في بلاد الروم غزاها المعتصم حين سمع شراة العلوية. قيل سميت بعمورية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام. وقد ذكرها أبو تمام فقال: يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب. قال بطليموس: مدينة عمورية طولها أربع وتسعون درجة وعرضها ثمان وثلاثون درجة وست عشرة دقيقة، طالعتها العقرب بيت حياتها تسع درجات من

أهل الشرف والقدر من الروم في ناحية ويعزل الباقين في ناحية، ففعل ذلك بسيل.^(١) ومن الواضح هنا أن بسيل الترجمان كان مسيحياً لا مسلماً من منطقة الحدود الإسلامية - البيزنطية.

ويشير السمعاني عند ترجمته للترجماني العسقلاني إلى أن سيف الدولة الحمداني كان يتخذ له ترجماناً خاصاً، دون أن يحدد هويته.^(٢)

أما ابن العديم فيذكر رواية مهمة تقول: "وفى جبل بنى عليم من أعمال حلب قرية يقال لها نحلة مقابر يشاهد الناظر النور عليها ليلاً عن بعد، فإذا وصل إليها لا يرى شيئاً، وعليها كتابة بالرومية. حكى لى صديقنا بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب رحمه الله أن الأمير سيف الدين على بن قلعج، وكان من أكابر الأمراء بحلب، وقد اجتمعت أنا به ولم أسأله عن ذلك بأن تنقل تلك الكتابة الرومية، فنقلت ودفعها إلى بعض علماء الروم فترجمها وكان معناها 'هذا النور هبة من الله العظيم لنا' أو ذكر كلاماً نحو هذا وفيه زيادة عليه".^(٣) وتشير هذه الرواية إلى استمرار وجود ضلعين في الرومية من أهل الذمة، سواء كانوا من الروم الأرثوذكس الذين تقصدهم هذه الرواية أم من أبناء الشام أنفسهم المسيحيين.

ولا غرو فقد قامت حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية على أيدي تراجمة مهرة ممن عاشوا في دار الإسلام، سواء من المسلمين أم من أهل الذمة - وهم الكثرة الغالبة - الذين أجادوا عدداً من اللغات مثل السريانية واليونانية والعربية في آن واحد، حفظ لنا التاريخ أسماء العديد منهم، أمثال: عبد المسيح بن نعيمة الحمصي، أبو بشر متى بن يونس، يحيى بن بطريق، عيسى بن يحيى، قسطا بن لوقا، يوحنا بن مسويه، يوحنا بن بختيشوع، حنين بن إسحق وعدد من أفراد أسرته،^(٤) الذين كان أغلبهم يجيد السريانية واليونانية إلى جانب العربية؛^(٥) وأبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن قيورا بن إبراهيم بن قيورا بن مارينون بن شلومون الصابئ الحراني.^(٦) ويعلق ابن أبي أصيبعة

الدلو تحت أربع عشرة درجة من السرطان يقابلها مثلها من الجدى بيت ملكها مثلها من الحمل بيت عاقبتها مثلها من الميزان، وهي في الإقليم الخامس. وفي زيج أبي عون عمورية في الإقليم الرابع طولها ثلاث وخمسون درجة وعرضها سبع وثلاثون درجة وهي التي فتحها المعتصم في سنة ٣٢٢هـ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥٨.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك (بيروت د.ت.)، ج ٥، ص ٢٤٢.

(٢) السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي (بيروت ١٩٩٨)، ج ١، ص ٤٥٥-٤٥٦.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار (دمشق د.ت.)، ج ١، ص ٤٥٦-٤٥٧.

(٤) عنه انظر، نسيم مجلى، حنين بن إسحق وعصر الترجمة العربية، منشورات المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة ٢٠٠٦). ترجم حنين بن إسحق، على سبيل المثال، إلى العربية سبعة كتب لاقراط، وتسعة وثلاثين كتاباً لجالينوس، بالإضافة إلى خمسة وتسعين كتاباً إلى السريانية لجالينوس وأرسطو وغيرهما. انظر:

Tarek M. Muhammad, "Aspects of Greek Wisdom in the Thought of al-Ghazālī," in: *Cultural Relations between Byzantium and the Arabs*, ed. Y. al-Hijji and V. Christides (Athens 2007), p. 158.

(5) Tarek M. Muhammad, "The Intellectual Greek Influence on the Political Islamic Thought: the Case of al-Ghazālī," *Social Evolution and History* 7/2 (Moscow 2008), p. 59.

(٦) كان أبو الحسن بن ثابت بن قرة الحراني صيرفياً في سوق حران ثم أتقن الفلسفة وأحكمها وتضلع في اللغات اليونانية والسريانية والعربية، وصنف بالعربية زهاء مائة وخمسين كتاباً في الفصاحة والرياضيات والفلك والطب. وألف في السريانية ستة عشر كتاباً. انظر: ابن العبري، تاريخ الزمان، ترجمه: عن السريانية الأب اسحق أرملة (بيروت ١٩٨٦)، ص ٤٨-٤٩.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

على المترجمين السابقين قائلًا: "حذاق الترجمة في الإسلام أربعة حُنين بن إسحق ويعقوب بن إسحق الكندي وثابت بن قرة الحرّاني وعمر بن الفرخان الطبري".^(١)

لقد ازدادت حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية ازدهاراً على أيدي الترجمة الذميين بصفة خاصة، الذين شجعهم البلاط العباسي فيما بعد - بدءاً من عهد الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٤م) وحتى عهد الخليفة المأمون (١٣٦-٢١٨هـ / ٧٥٤-٨٣٣م)،^(٢) وهو ما أدى - حسب اعتقادي - إلى انتعاش اللغة الرومية بين النقلة الذميين الذين كثيراً ما كان البلاط يستعين بهم في أعمال الترجمة الشفاهية بين سفراء الروم وبين الخلفاء العباسيين ورجال البلاط العباسي عامة. ويكفي أن نقرأ الفصل الذي كتبه ابن أبي أصيبعة عن طبقة الأطباء النقلة، الذين نقلوا الكتب من اللسان اليوناني إلى العربية^(٣) لندرك أن اليونانية عاشت بدرجة أساسية بين أهل الذمة ممن عاشوا في دار الإسلام، وإلى أي مدى برعوا فيها.^(٤)

جدير بالذكر في هذا المقام أن بعض الخلفاء المسلمين خاصة من العباسيين كان يجيد اللغة الرومية، فيورد هلال الصابي رواية مهمة للغاية تقول: "حدثنا خادم رومي كان واقفاً بين يدي المكتفي بالله (٢٩٠-٢٩٦هـ / ٩٠٢-٩٠٨م)، وأسماء وانسيت اسمه، قال: دخلت إلى المعتضد بالله (٢٧٩-٢٩٠هـ / ٨٩٢-٩٠٢م) لأخاطبه بسر كان يراعيه من أمر حرمة، وهو يحدث ثابت بن قرة. فبدأت أخاطبه بالرومية، وكان المعتضد عارفاً بها. فخرج ثابت مبادراً، وردّه المعتضد بالله، وقال له: لم خرجت قبل أن يتقطع الكلام بيني وبينك؟ فقال: لأنني أحسن الكلام بالرومية وكرهت أن أسمع من سر أمير المؤمنين ما اعتمد المتكلم به كتمانته عنى. فاستحسن هذا الفعل منه وزاد استرجاجه إياه".^(٥) والمهم في هذه الرواية ليس معرفة الخليفة المعتضد بالله بالرومية، ولكن: من أين له أن يعرف الرومية؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقودنا إلى معرفة أن عدداً من الخلفاء العباسيين كانت أمهاتهم روميات (بيزنطيات). فقد كانت أم الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٨-٢٣٣هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) رومية تدعى "قراطيس"؛ وكذلك أم الخليفة العباسي المنتصر بالله (٢٤٧-٢٤٨هـ / ٨٦١-٨٦٢م) وتدعى "حبشية"؛ وكانت أم الخليفة العباسي المهدي بالله (٢٥٦-٢٥٧هـ / ٨٦٩-٨٧٠م) رومية وتدعى "قرب"؛ وأيضاً أم الخليفة المعتمد على الله (٢٥٧-٢٧٩هـ / ٨٧٠-٨٩٢م) وتسمى "فتيان"؛ وكذلك أم الخليفة العباسي الراضي بالله (٣٢٣-٣٢٩هـ / ٩٣٤-

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا (بيروت د.ت.)، ص ٢٨٦.

(2) Muhammad, *The Intellectual Greek Influence*, p. 58.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٩-٢٨٤.

(٤) وتجدر الإشارة إلى أن معظم الأعمال التي اهتم المسلمون بترجمتها إلى العربية كانت تلك المتعلقة بالعلوم والفلسفة والأعمال اليونانية الكلاسيكية التي تعود إلى ما قبل العصر البيزنطي، على عكس اهتمامات المترجمين المسيحيين أنفسهم الذين أولوا عنايتهم الخاصة أيضاً إلى كتب سير القديسين، واللاهوت، والتاريخ الكنسي وغيرها. انظر:

A. Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus and his World* (London 1973), pp. 389-390.

(٥) هلال الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد (بيروت ١٩٨٦م)، ص ٨٨-٨٩.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

٩٤٠م). وتدعى "ظلوم".^(١) وليس من المستبعد أن هؤلاء الأمهات الروميات علمن أبناءهن الرومية، وهذا يوحي بأن أم المعتضد بالله ربما كانت رومية أيضاً، لذا نشأ يجيد الرومية كأمه.^(٢) وإذا كانت حالات زواج بعض الخلفاء العباسيين من بيزنطيات أمر رصدته المصادر التاريخية، فإنها أيضاً أشارت إلى وقوع زيجات من هذا النوع خلال الخلافة الأموية، فأَم الخليفة الأموي مروان بن محمد بن مروان (١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤-٧٥٠م) كانت رومية وتدعى "ماريه البرما".^(٣)

الرومية بين الأسرى المسلمين وسكان الحدود الإسلامية - البيزنطية

تجدر الإشارة إلى أن الأسرى المسلمين الذين وقعوا في أسر البيزنطيين وأرسلوا إلى القسطنطينية ليتمكثوا في حبوسها حتى يأتيتهم الفداء قد مكث بعضهم فترة طويلة تصل لعدة سنوات استطاع خلالها تعلم اللغة الرومية. ويمكن أن نستدل على ذلك من رواية الأسير المسلم قباث بن رزين اللخمي الذي أسره البيزنطيون زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان وأطلقوا سراحه زمن الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان، وكان ينتقل في أسره من بطريق بيزنطي إلى آخر، إلى أن انتهى به المطاف إلى البطريق الذي كان يتولى إقليم تراقية،^(٤) المتاخم لحدود البلغار.^(٥) وتمضى الرواية إلى أن دخل هذا الأسير العربي - المسلم في مناظرة دينية مع البطريرك البيزنطي نفسه، بناءً على طلب قباث.

يقول قباث: "فلما دخلت على الملك، استدنانى، وقربنى، وأكرمنى، وقال لى: ناظر هؤلاء البطارقة. فأعلمته أنى لا أرضى لنفسى بمناظرتهم، وأنى لا أناظر إلا البطريق الأكبر، فأمر بإحضاره. فلما دخل، سلمت عليه، وقلت له: مرحباً أيها الشيخ الكبير القدر. ثم قلت له: يا شيخ، كيف أنت؟..."^(٦) وتمضى القصة إلى أن ينخر البطريرك نخرة

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٤٣١؛ ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت ١٩٩٢)، ج ٦، ص ٢٦٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٧٢، ٢٠١. انظر أيضاً:

Marius Canard, "Les relations politiques et sociales entre Byzance et les arabes", *Dumbarton Oaks Papers* 18 (1964), p. 45; Muhammad, *The Conversion from Islam to Christianity*, p. 137, n. 91.

(٢) تشير الأسماء التي حملتها هؤلاء الروميات إلى أنهم أسلمن، ومن ثم استبدلن أسمائهن البيزنطية بأخرى عربية.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، ج ٧، ص ٢٦٠.

(٤) كان هذا الإقليم أو الثيم يقع فى شبه جزيرة البلقان، ويتولاه قائد عسكري برتبة استراتيجوس ويحمل لقب بطريق أيضاً، وهو واحد من أهم الثيمات الغربية ويليها ثيم مقدونية فى الأهمية. (لمزيد من التفاصيل عنه) انظر:

Constantine Porphyrogenitus, *De Thematribus*, ed. I. Bekker, *CSHB II (Bonn 1840)*, pp. 44-47; *Taktikon Uspenskij*, dans *Les listes des préséance byzantines des IXe-Xe siècles*, ed. N. Oikonomides (Paris 1972), p. 49; *Traité de Philothée*, dans *Les listes des préséance byzantines des IXe-Xe siècles*, ed. et trad. N. Oikonomides (Paris 1972), pp. 101, 105, 139, 142. See also P. Lemerl, *Histoire de Byzance* (Paris 1975), p. 72; N. Oikonomides, "Une list arabe des stratèges byzantins du VIIe siècle et les origins du thème de Sicile," *RBSN 11*(1964), p. 125; V. Laurent, "La Macédonie oriental à l'époque byzantine," *REB 5* (1948), p. 77; Ch. Diehl, "L'origine du régime des thèmes dans l'empire byzantine," dans *Études byzantines* (Paris 1905), p. 283.

(5) M. Canard, "Les aventures d'un prisonnier arabe et d'un patrice byzantin à l'époque des guerres bulgaro-byzantines," *Dumbarton Oaks Papers* 9 (1956), p. 67.

(6) التتوخي، كتاب الفرغ بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي (بيروت ١٩٧٨)، ج ٢، ص ١٩١-٢٠٤.

نخرة أفرعت قباث، ثم قال البطريرك للملك: "أخرج هذا الساعة من بلدك، لا يفسد عليك أهله [هكذا]..."^(١) وهكذا، نلاحظ أن قباث كان يتحدث بضمير المتكلم، دون الإشارة إلى وجود ترجمان نهائياً، وهو ما يعنى أنه تعلم لغة الروم في أسره نتيجة لطول المقام هناك، وهذا ما مكنه من الحديث مع الإمبراطور البيزنطي نفسه ومناظرة البطريرك والحديث مع البطارقة الآخرين أيضاً. ولعل مما يؤكد ذلك أنه عند تسليم البيزنطيين إياه إلى المسلمين الذين نفروا للقاء هذا الرهط من البيزنطيين، سأل النافرون من المسلمين قباث عما قال الروم، فوافق قوله قولهم.^(٢)

ويشير القاضى عبد الجبار الهمذانى (ت ٤١٥هـ / ١٠٢٤م.) إلى أن بعض الأسرى المسلمين ممن أرسلوا إلى القسطنطينية وطال بهم المقام فى الأسر هناك سنوات طوال قد "أظهروا النصرانية تقيّة، وانتشروا بينهم (أي البيزنطيين)، واختلطوا بهم".^(٣) وهذه الرواية تشير ضمناً إلى اكتساب الأسرى المسلمين ممن بقوا فى الأسر طويلاً بالقسطنطينية اللغة الرومية، والتي لن يختلطوا بالسكان هناك ويتزوجون منهم إلا إذا كانوا يتحدثون بلغتهم.

وهناك أيضاً حالة أبى بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصارى، الذى ولد عام ٤٤٢هـ، حيث ورد عنه أنه يقول "أسرتنى الروم وقيبت فى الأسر سنةً ونصفاً وكان خمسة أشهر الغل فى عنقى والسلاسل على يدي ورجلى وكانوا يقولون لى قل المسيح ابن الله حتى نفعل ونصنع فى حقك، فامتعت وما قلت، ووقت أن حبست كان ثمّ مُعلم يعلم الصبيان الخط بالرومية فتعلمت فى الحبس الخط الرومى".^(٤)

كما تجدر الإشارة إلى أن الروميات اللواتى أُسرن على أيدي المسلمين فى مناطق الحدود البيزنطية - الإسلامية، وعُشن داخل دار الإسلام كزوجات مسلمات، علمن أبناءهن الرومية. ونستنتج هذا من قصة الشاب العربى - المسلم الذى التقى بجده البيزنطى - النصرانى، والتي رواها القاضى أبو على المحسن التتوخى عن ابن دريد عن أبى حاتم عن أبى معمر عن رجل من أهل الكوفة خرج للجهاد مع مسلمة بن عبد الملك، حيث قال: "كنا مع مسلمة بن عبد الملك ببلاد الروم، فسبا سبايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعرض السبى على السيف، فقتل خلقاً، حتى عرض عليه شيخ كبير ضعيف، فأمر بقتله.

فقال له الشيخ: ما حاجتك على قتل شيخ مثلى؟ إن تركتني حياً جئتك بأسيرين من المسلمين شابين.

فقال له مسلمة: ومن لى بذلك؟

فقال له: إني إذا وعدت وفيت.

فقال له مسلمة: لست أثق بك.

فقال له: دعنى حتى أطوف فى عسكري، لعلى أعرف من يتكفل بى إلى أن أمضى وأعود أجئ بالأسيرين. فوكل به من يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشيخ يطوف ويتصفح الوجوه،

حتى مر بفتى من بنى كلاب، قائماً يحس فرسه.

فقال له: يا فتى اضمنى للأمير، وقص عليه قصته...

(١) التتوخى، الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٢٠٥. Canard, *Les aventures d'un prisonnier arabe*, pp. 62-63.

(٢) التتوخى، الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٩١.

(٣) عبد الجبار الهمذانى، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق: عبد الكريم عثمان (بيروت ١٩٦٦)، ج ١، ص ١٧١.

(٤) الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٠٨.

إمام العرب المسلمين بالرومية فى العصر البيزنطى الأوسط

وتمضى الرواية بعد ذلك حيث يعود الشيخ البيزنطى هذا إلى مسلمة بن عبد الملك ومعه الأسيران المسلمان، فيسلمهما لمسلمة الذى أطلق سراحه. غير أن الشيخ طلب من مسلمة أن يأذن للفتى الذى ضمنه أن يذهب معه إلى الحصن البيزنطى الذى يقيم به الشيخ وأسرته ليكافئه. فأذن له مسلمة. وفى الطريق تحدث الشيخ إلى الفتى العربى المسلم فيخبره أنه جده لأمه. وعندما وصلا إلى الحصن الذى يقيم فيه الشيخ البيزنطى هذا، نادى على أقربائه وعرفهم بالفتى مثلما عرفه على جدته وخالته. وعندئذ، أعطاه حلى أمه وثيابها التى كانت تلبسها قبل وقوعها فى أسر المسلمين. كما أعطاه هدايا كثيرة لأمه وأموالاً وثياباً.^(١)

وإذا كانت هذه الرواية لا تشير إلى اللغة التى كان يتحدث بها الشاب المسلم مع جده صراحة، إلا أنها أشارت إلى أن الشيخ كان يتحدث بالرومية لاسيما عندما كان يُعرف الفتى على أقربائه لأمه.^(٢) وهنا من المحتمل أن الفتى العربى كان يتحدث الرومية، أو أن جده لأمه كان يتحدث العربية، وإن كان الاحتمال الأول هو الأرجح نظراً إلى أن أمه كانت بيزنطية الأصل.

وفى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد "كانت له جارية رومية يقال لها "خرشى" وكانت ذات قدر عنده محلها منه محل الخوازن، وكانت لها أخت أو بنت أخت، ربما أتت الرشيد بالكسوة أو بالشئ مما خرشى خزنة عليه، فافتقدها الرشيد فى بعض الأوقات، وسأل "خرشى" عنها فأعلمته أنها زوجتها من قرابة لها، فغضب من ذلك وقال: كيف أقدمت على تزويج قرابة لك أصل ابتياعك إياها من مالى بغير أذنى؟ وأمر سلاماً الأبرش بتعرف أمر من تزوجها وبتأديبه. فتعرف سلام الخبر حتى وقع على الزوج، فلم يكلمه حين ظفر به حتى خصاه، فبلى بالخصاء، بعد أن علفت الجارية منه. وولدت الجارية عند مخرج الرشيد إلى طوس. وكانت وفاة الرشيد بعد ذلك فتبنت "خرشى" ذلك الغلام وأدبته بأداب الروم وقراءة كتبهم فتعلم اللسان اليونانى علماً كانت له فيه رياسة، وهو إسحق المعروف بابن الخصى. فكنا نجتمع فى مجالس أهل الأدب كثيراً فوجب لذلك حقه وذمامه واعتل إسحق بن الخصى علة فأتيته عائداً فإنى لفى منزلة إذ بصرت بإنسان له شعرة قد جللته وقد ستر وجهه عنى ببعضها وهو يتردد وينشد شعراً بالرومية لأوميرس [أى هوميروس] رئيس شعراء الروم. "جدير بالذكر أن الرجل المتخفى الذى كان يلقي الشعر باليونانية كان حنين بن إسحق.^(٣)

وتشير المصادر التاريخية والأدبية إلى أن سكان الحدود الإسلامية - البيزنطية من المسلمين كانوا يلمون بالرومية، ففي عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م. غزا المسلمون أرض الروم وعند مرورهم بحصن من الحصون البيزنطية لمح أحد المسلمين الغزاة فتاة رومية تنظر من خلف باب الحصن فوق في غرام جمالها وأراد وصالها، فذهب إليها وحدثها بالرومية (أى اليونانية) قائلاً: "كيف السبيل إليك؟ قالت: حين تنتصر، ويفتح لك الباب، وأنا لك. ففعل ودخل". وعندما عاد الغزاة المسلمون إلى نفس الحصن بعد عام وجدوه قد نسي القرآن الكريم كله، والذى كان حافظاً

(١) التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٢٩-٣١؛ ابن الجوزى، المنتظم، ج ٦، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٢) التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٣١؛ ابن الجوزى، المنتظم، ج ٦، ص ٢٧٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص ٢٥٨.

له، ما عدا آية واحدة.^(١) ولعل هذا حدث نتيجة تأثير اللغة الرومية عليه، والتي تحتم عليه أن يتكلم بها مع زوجته البيزنطية ومن عاشرهم هناك من البيزنطيين طوال إقامته على مدار العام.

وتؤكد الملحمة البيزنطية باسيل حارس الحدود "ديجينيس أكريتيس *Digenes Akrites*"، التي تعود إلى القرن العاشر الميلادي، أن سكان الحدود من المسلمين والبيزنطيين كانت لغة كل منهم معلومة للآخر، وأن الروميات اللواتي أسرن وأدخلن إلى الإسلام وتزوجن من رجال عرب، سواء برغبتهن أو دونها، وأنجن أولاداً منهم كن حريصات على تعليمهم اللغة الرومية، لغة الأم. وتسرود الملحمة قصة الأمير موصور العربي المسلم الذي أغار على منطقة الحدود البيزنطية - الإسلامية، عبر إقليم خرشنة،^(٢) وأسره فتاة مليحة ابنة أحد القادة البيزنطيين،^(٣) الذي لم يكن موجوداً في قلعته آنذاك.^(٤) والتي سرعان ما هام بها ووقع في غرامها حتى لم يجد منه فكاكاً، فاضطر إلى التخلي عن الإسلام من أجل الزواج منها.

ولما سمع إخوتها الخمسة الذين كانوا على الحدود بما حل بها، بعد أن أخبرتهم أمهم بذلك، عهدت إليهم أن يسعوا وراء الأمير ويعيدوا أختهم وإلاً عليهم ألا يرجعوا أحياءً.^(٥) وقد وصلوا إلى مخيم الأمير العربي ببلاد الشام وتحدثوا إليه بالدمع؛ ففتن الأمير بشجاعتهم ولباقتهم في الحديث "حيث كان يجيد لغة الروم"، كما تقول الملحمة، وتبادل معهم القول.^(٦) وهكذا، تمضى الملحمة لتؤكد أن الأمير العربي موصور كان يجيد اللغة الرومية، وقد تحدث بها طوال صفحات الملحمة - حيث كانت محبوبته رومية لا تعرف العربية - لاسيما بعد أن رحل إلى بلاد الروم؛ وهذا ببساطة شديدة ليس لأنه كان يحكم إقليماً حدياً بين بلاد الشام وبيزنطة فقط بل لأن أمه كانت فتاة رومية من عائلة كيرماجستروس *Kyrmagistres* البيزنطية العريقة،^(٧) أسرها المسلمون في إحدى غزواتهم على الأراضي البيزنطية، وقد تزوجها والده وأنجب منها الأمير موصور؛^(٨) وكانت تسمى بانثيا *Panthia*^(٩) أو سباتيا *Spathia*.^(١٠)

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٥، ص ١٢٠-١٢١؛

Muhammad, *The Conversion from Islam to Christianity*, p. 128.

(٢) كان إقليم خرشنة، وهو أحد الأقاليم البيزنطية التي تقع في آسيا الصغرى، في البداية كليزورا، حيث كان قائده آنذاك يلقب بكليزورارخ. *Taktikon Usp.*, 55; E. Brooks, "Arabic Lists of the Byzantine Themes", *JHS* 21(1901), p. 76; J. B. Bury, *A History of the Eastern Roman Empire* (London 1914) p. 249; L. Bréhier, *Les institutions de l'empire byzantin* (Paris 1943), p. 358.

(٣) في النص اليوناني ابنة الاستراتيجوس *θυγατέρα τοῦ στρατηγού* انظر:

Digenes Akrites, ed. and Eng. trans. Mavrogordato (Oxford 1970), p. 6. (henceforth GRO)

(4) GRO, pp. 5-7.

(5) GRO, p. 7.

(6) GRO, pp. 9-11.

(7) N. Adontz, "Les fonds historiques de l'épopée byzantine Digénis Akritas," dans *Études Armeno-Byzantines* (Lisbon 1965), p. 9.

(٨) طارق منصور، المسلمون في الفكر المسيحي (القاهرة ٢٠٠٨)، ص ٢١٤، هـ ٢٩.

(9) GRO, p. 18, *ὑπὸς δὲ τῆς Πανθίας*.

(١٠) طارق منصور، المسلمون في الفكر المسيحي، ص ٢١٤.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

وفي موضع آخر من الملحمة البيزنطية نجد عائشة ابنة القائد العربي هابلورابديس^(١) من زوجته فاطمة،^(٢) قد هربت مع واحد من أسرى والدها البيزنطيين، بعد أن هاما حباً ببعضهما البعض، ولم يجدا مفرأ من الهروب من أجل الفوز بغرام أبدى؛ وهذا الأسير هو ابن القائد الرومي انطيوخوس *Antiochus*.^(٣) وهنا لا نعرف بأي لغة تعامل الاثنان معاً، أى منَ منهما كان يجيد لغة الآخر، الرومية أو العربية. غير أن الأحداث التالية تشير إلى أن عائشة ربما كانت تتكلم الرومية، حيث خلا بها الحبيب وتركها فى الصحراء هارباً منها، بعد أن نال منها بغيته. وهنا يأتي إليها بطل الملحمة باسيل ديجينيس اكريتيس عندما رآها تبكى وحيدة، فيسألها عما ألمَّ بها، فتقص له قصتها مع الحبيب الهارب.^(٤) وهنا تؤكد أن عائشة لابد أنها كانت ملمة باللغة الرومية حتى تتمكن من الحديث مع باسيل، ومن المحتمل أيضاً أن باسيل هو الذى تحدث بالعربية؛ لأنه برغم أنه ولد بأرض الروم، لأبيه موصور - الذى كان يجيد الرومية - وأمه أيرين البيزنطية، ونشأ رومياً خالصاً على الرغم من أن والده كان سليل عريقين أيضاً، عربى ورومي، كما أنه نشأ مسيحياً خالصاً، عكس والده الذى كان مسلماً ثم ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية. ومما يؤكد إمام عائشة بالرومية هو علاقتها بذلك الشاب الرومي الذى أسره والدها، وهى العلاقة التى لم تقف عند الحب العفيف، بل تعدته إلى علاقة غير شرعية.^(٥)

وهكذا، تشير المصادر التاريخية والأدبية إلى أن سكان الحدود الإسلامية - البيزنطية كانوا يلمون باللغة الرومية، لغة الروم، ولم لا ... وقد كانت منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية وقت السلم مراكز اتصال حضاري بين الطرفين.

الرومية بين الخلفاء المسلمين والأباطرة البيزنطيين

تشير الروايات التاريخية إلى أن الخلفاء المسلمين كانوا يبعثون كتبهم إلى الأباطرة البيزنطيين مكتوبة بالعربية، فعلى سبيل المثال عندما أرسل الإمبراطور البيزنطي نقفور الأول *Nicephore I* (٨٠٢-٨١١م.) رسالته المشهورة إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد متهماً الإمبراطورة إيرين *Irene* (٧٩٧-٨٠٢م.) أنها جعلت الخليفة مقام الرخ وهى مقام البيدق ... إلخ^(٦) استشاط الخليفة غضباً وأمر فى التو بإحضار دواة وكتب بالعربية: "بسم الله الرحمن

(١) يعتقد مافروجورداو، ناشر نسخة جروتافيراتا، أنه من المحتمل أن يكون هابلورابديس هو أبو تغلب حاكم ميفارقين وحليف برداس سكليروس عام ٩٧٦م. انظر: *GRO*, p. 146, n. 2238.

(٢) طارق منصور، المسلمون فى الفكر المسيحي، ص ٢٢٦، ه ٨٢.

(٣) *GRO*, pp. 141-158.

(٤) طارق منصور، المسلمون فى الفكر المسيحي، ص ٢٢٦.

(٥) Muhammad, *The Conversion from Islam to Christianity*, p. 127.

(٦) عندما اعلى نقفور الأول عرش بيزنطة سنة ٨٠٥م. أستهل عهده بعداء الخليفة العباسي هارون الرشيد، حيث قطع الجزية التي كانت تؤديها إليه الإمبراطورة إيرين، بل وصل به الحد أن طلب من الخليفة العباسي أن يرد له كل ما حصله من جزية فى عهد الإمبراطورة إيرين. وبناءً عليه دقت طبول الحرب بين الطرفين. انظر: السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، (القاهرة ١٩٦٠)، ص ٢١١-٢١٢؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجى، ج ١، البيزنطيون والعالم الإسلامى (القاهرة ٢٠٠٣)، ص ١٢٢-١٢٧؛ وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى، (الإسكندرية، ١٩٩٠)، ص ٢١٤ وما بعدها.

الرحيم، من هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم، قرأت كتابك يا ابن الفاجرة، والجواب ما تراه دون أن تسمع به. والسلام".^(١)

وهناك مثال آخر يشير إلى هذه النقطة، عندما أرسل الإمبراطور ثيوفيل *Theophilus* (٨٢٩-٨٤٢ م.)^(٢) إلى الخليفة العباسي المعتصم رسالة يتوعده فيها ويتهدده. فأمر الخليفة بإجابته، فكل كاتب من كتّابه عمل له نسخة طوّلها واستوفى معانيها، واحتج عليه من كتابه بما فسخ به دعواه، وأبطل عليه ما حكاها. فلما قرئت على الخليفة النسخ استطولها وقال: ليكتب إليه بما أنا مملية، وهو: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع به، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار".^(٣) وهكذا، أملى المعتصم على كتّابه صيغة الكتاب بالعربية لا بالرومية.

أما إذا انتقلنا إلى الكتب الرسمية التي كان يبعثها الأباطرة البيزنطيون إلى الخلفاء المسلمين سنجد أنها كانت مصحوبة في الغالب بترجمة عربية أعدت سلفاً في البلاط البيزنطي، وهي إما ترجمة كاملة أو شرح لمحتواها، وكان نص الرسالة بالرومية ومدون بماء الذهب والترجمة بالعربية ومدونة بماء الفضة. وهذا يتضح من الأمثلة التالية:

في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، يشير ابن الفراء إلى أنه أرسل رسالة مكتوبة إلى ملك الروم مع الشعبي. فلما سلمها للإمبراطور البيزنطي وقرأها، دفع إليه رقعة مختومة، وقال له: "إذا أدبت الجواب، وأوصلت الكتاب، فأعط صاحبك هذا الكتيب". فلما انصرف الشعبي من عند الإمبراطور البيزنطي ووصل إلى الخليفة الأموي سلمه الرقعة وقال له أن الإمبراطور قال كذا وكذا. فقال عبد الملك بن مروان: "علها كيدة من كيداتهم، هاتها. فدفعها إليه، ففضها وقرأها إذ فيها: "العجب لقوم فيهم مثل هذا، كيف يملكون غيره...!"^(٤) والإشارة المهمة في هذا النص أن الخليفة الأموي حال تسلمه الرقعة فضها في التو وقرأها، مما يعنى أنها كانت مكتوبة بالعربية أو مصحوبة بترجمة عربية، لأنه لم يثبت أن عبد الملك بن مروان كان يعرف الرومية.

وفي نص للمقرى فيه صفة كتاب قسطنطين بن ليون [قسطنطين السابع] ملك الروم إلى الخليفة الأموي بالأندلس عبد الرحمن الناصر: "وهو في رق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة

(١) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ١، ص ٤١-٤٢. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٩، ص ١٣٨؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٦٦٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٣٣٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٢؛ الحنبلي، شذرات الذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط (بيروت ١٤٠٦)، ج ١، ص ٣١١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٧١)، ص ٢٨٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة د.ت.)، ج ١، ص ١٩٢؛ ج ٦، ص ٤٥٧.

(٢) ورد الاسم عند ابن الفراء "باسيل بن إليون"، ولعله خلط بين السفير البيزنطي باسيل، استراتيجوس تيم خرسون، الذي أرسله ثيوفيل فيما بعد عام ٨٣٨ م. في سفارة للخليفة العباسي المنصور، وبين الإمبراطور نفسه. انظر ابن الفراء، تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٣٤-٣٥، هـ ٣؛ السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٤٩.

(٣) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ١، ص ٤٤.

(٤) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ٢، ص ١٣٣-١٣٤.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

ولده. وكان الكتاب بداخل الملك معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسه بالدباج. وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفي سطر آخر العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطل الله بقاءه".^(١)

وفي عام ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م. أرسل الإمبراطور رومانوس ليكابينوس *Romanus Lecapenus* (٩١٩-٩٤٤م.) رسالة إلى الخليفة الراضي "دونت بالرومية بحروف ذهبية وكتب شرحها بالعربية بحروف فضية شفعتها بهدايا ثمينة وأنية ذهبية وفضية مرصعة بحجارة كريمة".^(٢)

وفي عهد الإمبراطور نفقور فوقاس *Nicephore Phocas* (٩٦٣-٩٦٩م.) تقابلنا القصيدة الأرمينية المشهورة التي أرسلها الإمبراطور إلى الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣ هـ/ ٩٤٦-٩٧٤م.) عام ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م.^(٣) وفيها يسب الدين الإسلامي ويفخر بمآثره العسكرية ويدّئ ويحقر من شأن المسلمين، كما يهددهم فيها باستمرار غزوه لأراضيهم.^(٤) وهذه القصيدة الشعرية التي أرسلت للمسلمين أعدت سلفاً في القصر البيزنطي باللغة العربية، ربما من قبل أحد المسيحيين الشرقيين أو من قبل أحد المسلمين المرتدين عن الإسلام، الذين عاشوا في القسطنطينية. بيد أن الافتراض الأخير هو الأرجح استناداً إلى رواية ابن كثير التي تقول أن الذي نظم القصيدة لنفقور فوقاس كان "بعض كتابه ممن كانوا قد خذله الله وأذله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، وصرفه عن الإسلام وأهله".^(٥) بيد أنه في المقابل قام بعض مشايخ المسلمين بنظم قصائد بالعربية للرد على نفقور فوقاس وصلت إلى بيزنطة.^(٦) وقد كان من المتوقع أن ترسل هذه القصيدة إلى البيزنطيين بالرومية، كما فعل الإمبراطور نفقور فوقاس، عندما أرسل قصيدته للخليفة بالعربية. ومما يؤكد أن قصيدة الشاشي القفال وصلت إلى القسطنطينية، وترجمها الترجمة إلى الرومية، قول الشاعر عبد الملك بن محمد الشاشي: أنه وقع في أسر الروم بعد أن قال القفال الكبير قصيدته. فلما بلغ القسطنطينية اجتمع عليه أبحارهم يسألونه عن الشيخ القفال من هو، ومن أي بلد هو؟ ويتعجبون من قصيدته، ويقولون: ما علمنا أن في الإسلام رجلاً مثله.^(٧)

(١) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ١، ص ٣٤-٣٥؛ المقرئ، نفع الطيب في غسن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس (بيروت ١٣٨٨)، ج ١، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٦؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت كنعان (بيروت ١٩٥٨)، ج ١، ص ١١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٦٣)، ج ٣، ص ٢٦٢؛ ابن مسكويه، تجارب الأمم (القاهرة ١٩١٥)، ج ٥، ص ٤٠٤.

(٣) عمر كمال توفيق، الإمبراطور نفقور فوقاس واسترجاع الأراضي المقدسة (الإسكندرية ١٩٥٩)، ص ١٨.

(٤) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (بيروت د.ت.)، ج ٢، ص ١٧٩ وما بعدها؛ قصيدة إمبراطور الروم نفقور فوقاس في هجاء الإسلام والمسلمين، تحقيق: صلاح الدين المنجد (بيروت ١٩٨٢)، ص ١١-٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٤٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٤٤.

(٦) انظر رد الإمام الشاشي القفال عليها في: صلاح المنجد، قصيدة إمبراطور الروم نفقور فوقاس، ص ٢٨-٣٥؛ ورد ابن حزم أيضاً، ص ٤١-٥٨.

(٧) صلاح المنجد، قصيدة إمبراطور الروم نفقور فوقاس، ص ٣٨.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

وفي سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م. أرسل الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس *Constantine Monomachus* (١٠٤٢-١٠٥٥م.) رسالة إلى الخليفة القائم "بالرومية تخللت سطورها ترجمتها بالعربية. ورقمت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية افتتحها بهذه العبارة: قسطنطين الملك المؤمن المعظم القدير بالمسيح الله أغوستس موناخس الوحيد في دولة الروم، إلى الصديق الودود أبي جعفر إمام المسلمين وأمير المؤمنين ... إلى غير ذلك من عبارات الولاء".^(١)

وهكذا تشير رسالة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م. البيزنطية إلى أن الترجمة العربية كانت سطرًا بسطر، أي سطر يوناني يتبعه سطر عربي، وأنها أعدت سلفاً في القصر الإمبراطوري، قبل إرسالها إلى الخليفة.

ولا شك أن هدف البلاط البيزنطي من ترجمة الرسائل المرسلّة من قبله إلى الخلفاء المسلمين هو ضمان عدم تصحيف النص اليوناني المرسل من قبل ترجمة الخليفة، ولإظهار أن البيزنطيين عارفين بلغة العرب نثراً وشعراً. وإذا كان البيزنطيون يكتبون حروف لغتهم بماء الذهب، والعربية بماء الفضة، فإن هذا يعني نوعاً من الرمزية للإشارة إلى علو شأن البيزنطيين على العرب، ومن ثم لغتهم. فقد كانت "عقدتا السمو على الآخر" و"الأنا" متفاقمة في الشخصية البيزنطية، منذ أن وطئت أقدامها أرض بيزنطة على البوسفور في مستهل القرن الرابع الميلادي، وهو ما يعكسه كتاب "عن الإدارة الإمبراطورية" للإمبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس *Constantine Porpherogenitus* (٩١٣-٩٥٩م.).

أما عن لغة السفراء بين الطرفين، فتشير النصوص العربية إلى أن السفراء المسلمين عندما كانوا يذهبون إلى القسطنطينية لم يكن بصحبهم تراجمة ممن يجيدون الرومية من العرب، بل كان التراجمة في الغالب من داخل القصر الإمبراطوري نفسه، أو في بعض الحالات القليلة كان الإمبراطور يحادثهم بالعربية بنفسه.

فيذكر ابن الفقيه الهمداني أن عبادة ابن الصامت^(٢) كان يحدث أن أحد الخلفاء بعثه وهشام بن العاص^(٣) ونعيم بن عبد الله^(٤) إلى ملك الروم يدعوهم إلى الإسلام

(١) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩٧-٩٨.

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو الوليد. قال خليفة بن خياط: وأمه قرة العين بنت عبادة بن نضلة بن العجلان، شهد بدرًا. وقال ابن سعد: كان أحد النقباء بالعقبة وأخي رسول الله بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد المشاهد كلها بعد بدر. وقال ابن يونس: شهد فتح مصر، وكان أمير ريع المدد. وفي الصحيحين عن الصنابحي عن عبادة قال: أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ليلة العقبة، وروى عن النبي كثيراً؛ وهو أول من ولى قضاء فلسطين. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٦٢٣-٦٢٦.

(٣) هشام بن العاص الأموي، أخرج البيهقي في الدلائل من طريق شريح بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل من قریش إلى هرقل ندعوه إلى الإسلام فنزلنا على جبلة فدعونا إلى الإسلام فإذا عليه ثياب سواد فسأله عن ذلك قال: حلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قال: فقلنا له والله لناخذن مجلسك هذا ولناخذن منك الملك الأعظم، أخبرنا بهذا نبينا. قال: لستم بهم؛ ثم ذكر قصة دخولهم على هرقل واستخلائهم ... ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٦، ص ٥٤١-٥٤٢.

(٤) نعيم بن عبد الله بن أسيد بن عبد بن عوف بن عويج بن عدى بن كعب القرشي العدوي، المعروف بالنحام؛ قيل له ذلك لأن النبي قال له دخلت الجنة فسمعت نعمة من نعيم. وأخرج ابن قتيبة في الغريب من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال: خرجنا في سرية زيد بن حارثة التي أصاب فيها بنو فزارة فأتينا القوم خلوفاً فقاتل نعيم بن النحام العدوي يومئذ قتالاً شديداً، والنعمة هي

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

وعندما وصلوا إلى قصره وسُمح لهم بالدخول كان ملك الروم يتحدث معهم بالعربية بفصاحة، مستفسراً عن الإسلام.^(١)

ويذكر الهمداني أيضاً أن عمارة بن حمزة^(٢) ذهب سفيراً من قبل الخليفة العباسي المنصور إلى ملك الروم، وهناك - عندما أذن له بالدخول على الملك - سلم عليه وكان الترجمان بينه وبين الملك،^(٣) مما يعنى أن السفير المسلم لم يكن على دراية بالرومية.

وعلى العكس فهناك نص يوحى بأن بيزنطة كانت ترسل سفراءها إلى بلاط الخليفة العباسي ممن على دراية بالعربية. فيشير ابن الفراء إلى محادثة دارت مباشرة بين الخليفة العباسي المنصور وبين سفير بيزنطي حل عليه، دون أية إشارة إلى ترجمان. ونظراً لعدم وجود ما يثبت إمام الخليفة المنصور بالرومية، فإن النص التالي يوحى بالاستنتاج الذي رصدناه. فقد أمر الخليفة المنصور بعض ثقافته، وهو الربيع بن يونس،^(٤) أن يطوف مع أحد

السعة التي تكون في آخر النحنة الممدود آخرها. قال خليفة: أمه فاختة بنت حرب ابن عبد شمس وهي عدوية أيضاً من رهط عمرو. قال البخاري: له صحبة. وقال مصعب الزبيري: كان إسلامه قبل عمر ولكنه لم يهاجر إلا قبيل فتح مكة، وذلك لأنه كان ينفق على أرامل بني عدى وأيتامهم. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٦، ص ٤٥٨-٤٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧٩-٨٢.

(١) ابن الفقيه الهمداني، كتاب البلدان، تحقيق: يوسف الهادي (بيروت ١٩٩٦)، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) عمارة بن حمزة: تولى على فارس والأهواز وكور دجلة عام ٥٦هـ/ ٦٧٥م. وقد أقطعه المنصور الناحية المعروف به خلف مربعة شبيب بن واج. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١١٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، (بيروت ١٤٠٣)، ص ٢٩٤؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، (بيروت ١٣٩٧)، ص ٤٣٦. وقد ترك عمارة بن حمزة وصفاً شيقاً لمقابلته مع الإمبراطور البيزنطي ومراسم الاستقبال الإمبراطوري له. انظر: الهمداني، كتاب البلدان، ص ١٨٤-١٨٥.

(٣) الهمداني، كتاب البلدان، ص ١٨٣-١٨٤.

(٤) الربيع بن يونس بن محمد بن يونس بن أبي فروة واسم أبي فروة كيسان مولى أبي جعفر المنصور وحاجبه ووزر له بعد أبي أيوب المرزباني. وقد روى أبو الفرج الأصبهاني أن الربيع قال كنت في خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ففرقنا في خدمته فصرت إلى ياسر صاحب وضوئه فكنت أراه يعطيه الأبريق في المستراح ويقف مكانه لا يبرح فقال لي يوماً كن مكاني في هذا فكنت أعطيه الأبريق وأخرج مبادراً فإذا سمعت حركته بادرت إليه فقال لي ما أخفك على قلبي يا غلام. لم يزل الربيع وزير المنصور حتى توفي المنصور بمكة فأخذ الربيع للمهدى البيعة فشكر المهدى له ذلك وجعله حاجبه ولم يستوزه ثم ولاه ديوان الانشاء في عهد المهدى. (ابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٣٣٢-٣٣٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٢٢، ١٤٩)؛ وقد كانت للربيع جارية يقال لها أمة العزيز فأنقذت الجمال ناهدة الثديين حسنة القوام فأهداها إلى المهدى فلما رأى جمالها وهيئتها قال هذه لموسى الهادي أصلح، فوهبها له، فكانت أحب الخلق إليه، وولدت له بنيه الأكابر. ثم إن بعض أعداء الربيع قال لموسى إنه سمع الربيع يقول ما وضعت بيني وبين الأرض مثل أمة العزيز فغار موسى من ذلك غيرة شديدة وحلف ليقتلن الربيع. فلما استخلف دعا الربيع في بعض الأيام فتعدى معه وأكرمه وناوله كاساً فيها شراب عسل. فقال الربيع فلعلت أن نفسي فيها وأنى إن رددت الكأس ضرب عنقي مع ما قد علمت أن في قلبه على من دخولي على أمه وما بلغه عنى ولم يسمع منى عذراً فشربتها، وانصرف الربيع إلى منزله فجمع ولده وقال لهم: إني ميت في يومي هذا أو من غد. فقال له ابنه الفضل: ولم تقول هذا؟ جعلت فداك. فقال: إن موسى سقاني شربة سم بيده فأنا أجد عملها في بدني، ثم أوصى بما أراد ومات في يومه أو من غده. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٦١٧. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: الحنبلي، شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٤-٢٧٥؛ الياقعي، مرآة الجنان (القاهرة ١٤١٣)، ج ١، ص ٣٥٦-٣٥٧؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج ٨، ص ٣٦٠٦.

سفيرين بيزنطيين قدما عليه "فبريه مدينته ويوقفه على مبانيه وممالكه. فلما نظر إلى ذلك كله، وأعادته إلى المنصور، قال للرومي: كيف رأيت ما شاهدت؟ قال: كل ما رأيت جليل نبيل، إلا ثلاثة أشياء. قال: ما هي؟ قال: النفس خضراء ولا خضرة لك، والماء حياة ولا حياة لك، وعدوك معك - يعنى السوقة - وكانت السوق مخالطة لقصره. قال المنصور: أما الخضرة فإني خلقت للجد لا للهلزل، وأما الماء فحسبى منه ما بل الشفة وروى الصدى، وأما مجاورة العوام، فما أبالي أن يطلع على سرى خاصتى وعامتى لأنى لا أنى فيه وأحصنه".^(١)

وهناك إشارة مهمة لابن الجوزي يشير فيها إلى أن السفير البيزنطي كان يصغى لحديث دار بين الربيع بن يونس والخليفة المعتصم، حيث يقول: "فأصغى الرومي إلى الربيع يتفهم ما قال. ففطن المنصور لإصغاء الرومي فقال: يا ربيع أفهمه".^(٢) وهذه الإشارة قد تعنى أن السفير البيزنطي لم يكن على دراية كاملة بالعربية، ومن ثم أفهمه الربيع ما دار من حديث؛ وربما أن الخليفة لم يكن قد عرف بعد أن السفير البيزنطي يعرف العربية، لأنه بعد ذلك - حسب قول ابن الجوزي - كان يتحدث معه مباشرة، مما يعنى عدم وجود ترجمان.^(٣)

أما السفير الآخر فطيف به أيضاً، حسب أوامر الخليفة المنصور، "قرأى على الجسر خلقاً من ذوى الزمانة والعاهة يتصدقون ويسألون. فقال الرسول للربيع (بن يونس)، وكان معه: ما فى ملك صاحبك عيب غير أمر هؤلاء الرّمى. وقد كان يجب أن يراعى أمرهم حتى لا يجتمع عليهم - مع الزمانة - الفقر والمسألة. فقال الربيع: لم يذهب ذلك عنه، ولكن بيوت الأموال لا تتسع لذلك. وبلغ المنصور ما جرى بينهما، فاغتاظ على الربيع. فلما حضره الرسول قال: بلغنى مقالك للربيع آنفاً، وليس الأمر على ما أجابك به. وقد كان فى مالى ما يسعهم ويوفى على سد مفاقرهم، ولكن أمير المؤمنين أفكر فى أمرهم، فأحب ألا يستأثر على سائر رعيته ممن صحح اله جسمه، ويسطّ يده بملك الدنيا والآخرة وثوابها. فترك لهم سبيلاً إلى الصدقة واصطناع العرف، ونصبياً فى ابتغاء الثواب بالإفضال. فعقد العُلجُ ثلاثين وقال، وقد أومى إلى الأرض: قالون، قالون.^(٤) وهكذا، تؤكد الرواية الثانية أن الرسول البيزنطي كان على دراية بالعربية، بدليل أن من صحب الربيع بن يونس من رجال البلاط فى جولته مع السفير البيزنطي أخبروا الخليفة المنصور بما جرى قوله بين الاثنين؛ ومن ناحية ثانية عاد الخليفة وتحدث مع هذا السفير أيضاً مباشرة دون ترجمان، مما يؤكد استنتاجنا بأن سفراء بيزنطة إلى أرض الخلافة الإسلامية كانوا فى الغالب ممن يجيدون العربية. ومع هذا فإن الرسول البيزنطي هذا تفوه بعبارة يونانية معقباً بها على كلام الخليفة: "قالون، قالون" *καλόν. καλό*، وتعنى "جيد، جيد أو جميل، جميل".^(٥)

(١) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق: صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٤٧)، ج ١، ص ٣٩؛ البغدادي، تاريخ بغداد (بغداد د.ت.)، ج ١، ص ٧٨.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٧٨.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٧٩.

(٤) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ١، ص ٤٠. انظر أيضاً: الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨)، ص ١٣٣.

(٥) Liddell and Scott, *Greek-English Lexicon*, (Oxford 1987), s.v. *καλός*.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

وفي عهد الخليفة العباسي المعتصم وصل سفير الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) ليسأله المهادنة وتبادل الأسرى، محملاً بهدايا ثمينة للخليفة. وكانت السفارة مكونة من بطريق^(١) وخدام وجماعة معهما. وقد أذن للرسول البيزنطي بالدخول إلى الخليفة العباسي بعد ستة أشهر من وصولهما إلى بغداد وقال المعتصم: "أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك! فقال: كلا، إن طول المقام أوجب لي الذمام، ولم نزل نسمع من حكماننا أن إبطاء الرسول يؤذن بالنجاح، وما ضرني مقام قَرَبَ منك، وأشهدني نِعَمَ الله عندك. فأعجب المعتصم بما تُرجم له من كلام الرسول وقبل هديته".^(٢)

وهكذا، يشير هذا النص إلى أن بيزنطة كانت توفد أحياناً رسلاً إلى بلاط الخليفة العباسي ممن لا يعرفون العربية، مما استدعى وجود أحد مترجمي البلاط ليترجم للخليفة من الرومية إلى العربية. جدير بالذكر أن محمد بن عبد الملك الزيات^(٣) عندما وردت الكتب إلى بلاط الخليفة المعتصم فضها وهو بحضرة الخليفة "وتوصل إلى علم ما تضمنت"، ثم أعادها إلى الرسول ثانية. وعندما انتهى الخليفة المعتصم من الحديث معه بدأ محمد بن عبد الملك يوجه للرسول البيزنطي الكلام سائلاً إياه عن خراج بلاد الروم وغيرها من الأسئلة، دون ذكر لترجمان يترجم له ما يقوله السفير البيزنطي؛^(٤) وهذا يعطى الانطباع أن محمد بن عبد الملك كان على دراية بالرومية أيضاً، ومن ثم علم محتوى كتاب الإمبراطور البيزنطي بمجرد النظر فيه، ولذلك حضر لقاء الخليفة بالسفير البيزنطي، ليس بحكم أنه وزير للخليفة فقط بل بحكم درايته بالرومية.

وفي المقابل، فإن سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية عام ٢٤٦هـ / ٨٦٠م،^(٥) التي ذهبت لتبحث في أمر الفداء بين الطرفين، تشير إلى أن الترجمان كان ينقل كلامه إلى الإمبراطور البيزنطي الذي لم يكن يرد عليه سواء بالإيجاب أم الرفض إلا بإيماءات من رأسه دليل الموافقة أو الرفض؛ وأحياناً كان الترجمان ينقل الكلام إلى

(١) ربما كانت هذه سفارة باسيل الخرشني، بطريق واستراتيجوس ثم خرشنه. انظر، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٣.

(٢) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ١، ص ٣٥.

(٣) كان محمد بن عبد الملك الزيات من وزراء الخليفة العباسي المعتصم، وكان لتوليهِ الوزارة قصة طريفة هي: "كان في بعض الأيام ورد كتاب من الجبل يصف فيه استواء الغلات وكثرة الكأ فقال المعتصم لابن عمار: ما الكأ؟ فلم يعرفه، فدعا محمد بن عبد الملك الزيات فسأله فقال: ما رطب من الحشيش فهو كَأ فإذا جف ويبس فهو حشيش ويسمى أول ما ينبت الرطب والبقل. فقال المعتصم لأحمد بن عمار: انظر أنت في الأمور والدواوين وهذا يعرض على فعرض عليه أياماً ثم استوزره." (انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٧، ص ١٦٧). وكان محمد بن الزيات يقارب عطاؤه للنقلة والنساج في كل شهر ألفي دينار ونقل باسمه كتب عدة وكان أيضاً ممن نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وبختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع وداؤد بن سرابيون وسلمويه بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري وحبيش بن الحسن. (انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٤). وفي عهد الخليفة الواثق بالله أصبح كاتباً له. انظر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود (بيروت ٢٠٠٠)، ج ٢، ص ٥٧٢.

(٤) ابن الفراء، كتاب رسل الملوك، ج ١، ص ٣٤.

(٥) عن هذه السفارة انظر، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٣٢١-٣٢٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٢٤.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

خاله بتروناس *Petronas*، الذي كان يتولى الكلام نيابة عنه أحياناً^(١) والملفت للنظر هنا أن الترجمة الذين وجدهم نصر بن الأزر في البلاط البيزنطي كانوا من بلاد الشام، فقد قابل ثلاثة ترجمة بالقصر هم: "غلام فراش كان لمسور الخادم، وغلام لعباس بن سعيد الجوهري، وترجمان له قديم يقال له سرحون"؛ وقد قالوا له: "ماذا نبغاه" فقال لهم: "لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً". ومن ثم أقبلوا يترجمون للإمبراطور ما يقوله السفير العربي^(٢).

وفي ٢٥ يونيو من عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م عندما وصلت سفارة بيزنطية مكونة من سفير بيزنطي شاب حدث السن ومعه شيخ منهم وعشرون غلاماً^(٣) إلى بغداد استقبلها البلاط العباسي بكل حفاوة وترحيب وفخامة غير مسبوقه^(٤)، كان ذلك الشيخ يعمل ترجماناً للسفير البيزنطي^(٥)، حيث كان ينقل عن السفير البيزنطي إلى الوزير ابن الفرات ما يقولانه، ويقوم الوزير بدوره بإيصال ترجمة كلامه إلى الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠ هـ / ٩٠٨-٩٣٢ م) مبالغة في احترامه وإجلاله^(٦).

وهناك إشارة عند البغدادي^(٧) إلى أن أبا عمر عدى بن أحمد بن عبد الباقي الطرسوسي^(٨) صاحب السلطان ورئيس الثغور الشامية كان يرافق هذا الوفد البيزنطي أثناء تجواله في بغداد بين قصور الخليفة، وهي الإشارة التي ينبغي أن توضع في الحسبان، لأنها تعني أن مرافق الوفد البيزنطي لا بد وأنه يتحدث الرومية حتى يتمكن من أن يشرح لهم معالم بغداد، وهذا يفسر لنا لماذا والى الثغور الشامية بالذات وليس أحداً غيره اصطحب السفير

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٣٣٢-٣٣٣؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٠. انظر أيضاً: سليمان الرحيلي، السفارات الإسلامية على الدولة البيزنطية (الرياض ١٤١٤هـ)، ص ٨٧.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٣٣٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٢٧.

(٤) عن مظاهر الاستقبال الفخمة لهذه السفارة انظر، البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠٠-١٠٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ١٤٣-١٤٤؛ ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٥، ص ٥٤ وما بعدها؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٩٢؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة ١٩٧١)، ج ٣، ص ٨٠٦-٨٠٧؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق: صلاح الدين المنجد (الكويت ١٩٨٤)، ج ٢، ص ١٣٥؛ ابن الفراء، رسل الملوك، ج ٢، ص ١٢٣-١٢٥؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥١-٥٢. انظر أيضاً، الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص ٩٩-١٠١.

H. Kennedy, "Byzantine-Arab Diplomacy in the Near East from the Islamic Conquests to the Mid Eleventh Century," in: *Byzantine Diplomacy*, eds. J. Shepard and S. Franklin (Aldershot 1992), pp. 140-141.

(٥) البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠٥.

(٦) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٢.

(٧) البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠٤.

(٨) هو عدى بن أحمد بن عبد الباقي بن يحيى بن يزيد بن إبراهيم بن عبد الله أبو عمير الأذني حدث عن عمه أبي القاسم يحيى بن عبد الباقي الأذني وأبي عطية عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محرز الفزاري ويوسف بن يعقوب القاضي روى عنه أبو بكر أحمد بن عبد الكريم بن يعقوب الحلبي وأبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله بن غلبون المغربي وأبو حفص عمر بن علي الأنطاكي وقدم دمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة على أبي بكر الإخشيد أمير دمشق في أمر مفاداة أسرى المسلمين بأسارى الروم ذكر قدمه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى في تاريخه. وقد توفي سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م. (انظر، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٠، ص ٥٧).

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

البيزنطي؛ وهذا لأن اللغتين العربية والرومية في منطقة الحدود البيزنطية - الإسلامية - كما سنرى في الصفحات القادمة من البحث - كانتا تختلطان ببعضهما البعض. ويؤكد المؤرخ كيندى *Kennedy* على أن والى الثغور الشامية كان يُترجم له، لأنه لم يكن يعرف العربية.^(١)

وعلى الرغم من أن البغدادى يشير إلى وجود تُرجمان بيزنطى مع السفير البيزنطى، فإنه يشير أيضاً إلى أن مؤنس لخدام^(٢) ونصر القشورى^(٣) هما اللذان كانا يترجمان عن الخليفة المقتدر للسفير البيزنطى.^(٤) وهذا بطبيعة الحال يشير إلى أن الخليفة ما كان ليثق في ترجمة الترجمان البيزنطى، بل اعتمد على مترجميه التقاة. ومن ناحية ثانية، قد تفسر هذه الرواية لماذا تولى مؤنس الخادم أمر الفداء آنذاك.

وفى عام ٤١٣هـ / ١٠٢٢م. أرسل الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م.) بطريك بيت المقدس المدعو 'نقفور' *Nicephorus* (١٠٢٠-؟ م) سفيراً إلى القسطنطينية ليعمل على عقد أوامر الصداقة والتفاهم بين الدولتين.^(٥) ويعتقد المؤرخ سليمان الرحيلي أن اختيار البطريرك للقيام بهذه المهمة ينبئ عن حنكة ست الملك - أخت الخليفة الفاطمي - ودربتها السياسية؛ فهو باعتباره أسقفاً ورجل دين نصرانياً - خير من يثق فيه البيزنطيون ويستطيع إقناعهم بالصورة الجديدة للسياسة الفاطمية وأوضاع الأماكن المقدسة للنصارى، وموقف الدولة الجديد منها.^(٦) ويبدو أن المؤرخ الرحيلي فاتته نقطة مهمة وهي أن بطريك كنيسة بيت المقدس كان أرثوذكسياً يجيد اللغة

(1) *Kennedy, Byzantine-Arab Diplomacy in the Near East, p. 140.*

(٢) فى عام ٣٠٩هـ / ٩٢١م قلد الخليفة العباسى المقتدر مؤنس الخادم بلاد مصر والشام ولقبه المظفر وأمر بكتب ذلك فى المراسلات إلى الأفاق. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٣٢) كانت له حروب كثيرة مع البيزنطيين، كما قاتل القرامطة وانتصر عليهم أيضاً؛ غير أن الوحشة دبت بينه وبين الخليفة، فخرج مؤنس الخادم الملقب بالمظفر فى عام ٣١٧هـ / ٩٢٩م على الخليفة المقتدر لكونه بلغه أنه يريد أن يولى إمرة الأمراء هارون بن غريب مكان المؤنس، أو أنه أراد اغتياله. (انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٥٨-١٦٠؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٢؛ العاصمى، عبد الملك بن حسين الشافعى المكى، سَمَط النجوم العوالى، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض (بيروت ١٩٩٨)، ج ٣، ص ٤٨٨) وقد قتل مؤنس الخادم فى سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م وكان قد لقب بالمظفر لما عظم أمره وكان شجاعاً مقداماً فائقاً مهيباً عاش تسعين سنة، منها ستون سنة أميراً، وكان كل ما له فى علو ورفعة، وكان قد أبعد الخليفة المعتضد إلى مكة. ولما بويح المقتدر بالخلافة أحضره وقربه وفوض إليه الأمور فنال من السعادة والوجاهة ما لم ينله خادم قبله. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٧٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٩.)

(٣) كان الخليفة المعتضد بالله قد خلف نصر القشورى فى سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م. بالموصل ليحبي الأموال ويعين العمال على جبايتها عندما وقعت فتنة للخوارج بها آنذاك. (ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج ٦، ص ٣٨٠). وفى عهد المقتدر بالله أصبح نصر القشورى حاجباً فى البلاط العباسى، ومترجماً للخليفة أيضاً من اليونانية إلى العربية والعكس. وهذا يفسر فخامة دار نصر القشورى لدرجة جعلت السفير البيزنطى يعتقد أنها دار الخليفة. (انظر، البغدادى، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠٠-١٠٤، ١٠٤) وكان نصر القشورى واحداً ممن أووا الحلاج عندهم، بعد أن زادت فتنته فى بغداد وأضل الكثير من العباد، بما فيهم نصر القشورى نفسه. (انظر، الذهبى، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى (بيروت ١٤١٣هـ)، ج ١٤، ص ٣٣٧ وما بعدها؛ ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٠-٢٧١.)

(٤) البغدادى، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠٤.

(٥) يحيى بن سعيد الأنطاكى، التاريخ، نشره الأب لويس شيخو (بيروت ١٩٠٦)، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٦) الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص ١٩٣.

الرومية تماماً، وهى اللغة التى يتحدث بها الإمبراطور البيزنطى وشعبه. وبهذا تكتمل الأسباب التى من أجلها اختارت ست الملك البطريك نقفور لترسله سفيراً إلى القسطنطينية.

جدير بالذكر أن ابن بطوطة فيما بعد يشير إلى وجود ترجمة من يهود الشام كانوا يعملون بالبلاط البيزنطى، وقت أن زار القسطنطينية. فقد قال له الترجمان عندما قام البيزنطيون بتفتيشه: "لا تخف، فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمان، وأصلي من بلاد الشام".^(١) وقد طلب ابن بطوطة من الإمبراطور أن يعين له من يصطحبه فى شوارع المدينة ليشاهد معالمها، فعين له الإمبراطور فتى رومياً كان يعرف العربية للقيام بهذه المهمة.^(٢)

الخاتمة

وهكذا، من خلال العرض السابق، يمكننا القول أن العرب المسلمين إجمالاً كانوا على إدراك محدود باللغة الرومية، وهو ما لم يتناسب مع طول المدة الزمنية التى عاشوها إلى جوار الإمبراطورية البيزنطية. وقد انحصرت المعرفة بهذه اللغة فى المجتمع الإسلامى بين فئات أربع هى:

- (١) ترجمة البلاط، وبعض الوزراء والخلفاء المسلمين، لاسيما العباسيين.
- (٢) سكان الحدود الإسلامية - البيزنطية؛ حيث اتضح من البحث أن أهم خصائص منطقة الحدود هذه إمام بعض سكانها من المسلمين باللغة الرومية.

(٣) الأسرى المسلمين الذين عاشوا فى القسطنطينية، لاسيما الذين مكثوا فى الأسر طويلاً.

- (٤) الأسر الشامية المسيحية التى احترفت الترجمة كمهنة لها؛ حيث اتخذ الترجمة من غير المسلمين فى دار الإسلام من الترجمة حرفة لهم يتكسبون منها فى دار الإسلام. أما من برع من المسلمين فى اللغة اليونانية فكان عددهم قليلاً ولا تظهر أسماؤهم كثيراً فى المصادر مقارنة بالترجمين أو العارفين بتلك اللغة من أهل الذمة.
- وقد كشفت الدراسة أيضاً إلى أى مدى كان البلاط البيزنطى يحرص على استخدام الترجمة الشوام من غير المسلمين أو من المرتدين فى الترجمة من العربية إلى الرومية والعكس فى القصر البيزنطى.

كما أشارت الدراسة إلى أن الخلفاء المسلمين كانوا يرسلون كتبهم بالعربية للأباطرة البيزنطيين، بالإضافة إلى أن رسلهم كانوا فى الغالب لا يدركون لغة الروم؛ على عكس الأباطرة البيزنطيين الذين كانوا يرسلون سفراءهم للبلاط العباسى ممن يجيدون العربية فى الغالب؛ كما كانت كتب الإمبراطور الموجهة للخليفة مترجمة إلى العربية إلى جانب النص اليونانى.

أما على المستوى الشعبى فقد كان مستوى اللغة الرومية منخفضاً للغاية بين المسلمين، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

(١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٩٦٤)، ص ٣٤٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٣٥٠، ٣٥٤.

إمام العرب المسلمين بالرومية في العصر البيزنطي الأوسط

- ١- حالة العداء التي كانت قائمة بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية لم تعط الفرصة لأبنائهما للسفر والترحال بحرية بين أقاليمهما، ولو هذا كان قد تم لحدث امتزاج حضارى بين الطرفين واكتسب كل منهما لغة الآخر بصورة طبيعية.
- ٢- عدم حاجة عامة المسلمين في حياتهم اليومية لهذه اللغة.
- ٣- نظرة المسلمين للبيزنطيين على أنهم كفار أو مشركون؛ وما وصلنا من روايات عنهم إنما كان عن طريق الأسرى المسلمين، كمسلم بن أبى مسلم الجرمى أو هارون بن يحيى وغيرهما.
- ٤- التأثير اللغوي القوي للقرآن الكريم بين المسلمين، مما جعل جزءاً كبيراً من المسلمين يميلون للتبحر في علوم الدين واللغة العربية وغيرها من العلوم الشرعية.
- ٥- صعوبة اللغة الرومية (اليونانية البيزنطية)، حيث إنها لغة مُعربة سواء في الأسماء أم الأفعال، بالإضافة إلى حروف الجر المتغيرة المعنى، وغيرها من الصعوبات اللغوية التي تكتنف هذه اللغة.
- ٦- لم يظهر في المدارس الإسلامية سواء في الشام أم العراق أم مصر ما يدل على أنه كان هناك اهتمام بتعلم هذه اللغة أو وجود معلمين لها.

طارق منصور(*)

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك، كلية الآداب، جامعتى عين شمس والطائف. أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أ. د. ألبرخت برجر *Albrecht Berger*، رئيس تحرير مجلة *Byzantinische Zeitschrift* على تشجيعه لى على إعداد هذه الدراسة، وكذلك أ. د. موسى الحالول على قراءته المتأنية وملاحظاته المفيدة.